

غلوريا تصرخ بهلع كمن أوجعه كابوس . أنهض وأمضي إليها . أشعل نور الردهة المجاورة ، (لعلها تتوهم كالناس جميعاً أن الظلام هو سبب خوفها وتجهل أن دهاليزها الداخلية المعتمة هي المقر لأشباحها . لعلها تتعرف الآن عليها شبحاً شبحاً . لن يكون بوسعها مصادقتها إذا لم تعرفها . اعرف شبحك تعرف نفسك . إنها القاعدة الذهبية في نظري المكمل لـ «اعرف نفسك»!).

تئن من جديد دون أن تفتح عينيها .

أتأملها في النور الخافت . الدموع تسيل على وجهها كمن يمشي في كوكب الأحزان مغمض العينين ليرى جيداً في الظلام بعيني الروح وجسده مرمرى كالخرقة في كوكبنا الرث : كوكب الظاهر الترابي العابر . . .

أتقدم منها على رؤوس أصابعي . تفتح عينيها وقد أجفلت مذعورة . أحنو عليها وأعطيتها مندبلاً ورقياً لتمسح به الدموع عن وجهها وأدمدم بعبارات تطمئنها وتساعدتها على زيارة ولو قصيرة إلى جزيرة النسيان والسكينة .

أتأمل وجهها الذي يكاد يبدو مسناً وهي تحاول النوم من جديد وقد أغمضت عينيها . كم تبدل ذلك الوجه ولم يعد مشعاً بالصبا والأمل والفرح (عادت ذلك اليوم من إجازتها في شمال أفريقيا وقد ازدهر جمالها كما لم يزدهر من قبل وقالت لي بالعربية ببساطة : لقد تزوجت من الصافي! . . . ذهلت لا لأنها تزوجت فهذا يحدث كل يوم ولكن لأنها تتكلم العربية ، وأنا التي كنت أظنها فرنسية أباً عن جد .

فوجئت أيضاً بأن شعرها الذي طال يبدو عند منبته فاحم السواد كشعر العربيات وكنت أظنها شقراء .

لم تنتظر مني استفساراً بل سارعت تشرح الأمر : أنا عربية الجنسية ولدت في فرنسا وأمي فرنسية . اسمي الحقيقي زكية . أمي تناديني غلوريا وأبي يناديني زكية فهو عامل منجم في شمال فرنسا واسمي كما سجلوه يوم ولادتي زكية/غلوريا .

أمي تكلمني بالفرنسية وأبي يكلمني أنا واخوتي بالعربية . تقاعد أبي بعد إغلاق المنجم ولكن أمي رفضت أن ترافقه إلى بلده في شمال أفريقيا كما رفض